المرتدون: تأريخ للشخصية الغربية (3 من3):

المسلمون الموريسكوس ختنوا ابناءهم وصاموا رمضان وتمسكوا بعاداتهم حتى بعد تنصيرهم

عندما تهاوت فكرة الحلال والحرام مال الغرب لاتهام الاخر مسلما ام يهوديا بكل سلبياته ورميه بكل رذيلة

عرض وتقديم: ثامر بيراوي*

هذا كتاب مهم من ذلك النوع من الكتب التي يمكن تسميتها بذات الحديّن، ولا غرابة في ذلك، فالقلم كما السيف والكلمة كالمنشار، قال ذلك عرب وقد يقوله اليوم غربيون معاصرون، والحكمة ضالة المؤمن بحتمية الصح وفناء الخطأ، وقبل هذا وذاك كل شيء فان الا وجه الحقيقة.

وأكثر من أن يكون هذا الكتاب ذا حدين فهو كتاب حدود، موضوعه يخترق الحدود التقليدية بمعناها الجغرافي المعروف ويرسم لنا عوالم كبقع الزيت الهائم فوق الحدود. فمن الناحية العملية البحتة كان هذا الكتاب فرصة جيدة لكاتبته المثقفة الغربية المعتدلة الأهواء والجدية التثقيف للتعرف على زوايا خبيئة من شخصيتها كفرد وكمجتمع، وهو للقارئ الغربي تحسس لحبله السريّ الذي قد يكون قد نسيه كاملا أو نسي بعض أجزائه.

أما لنا فهو سياحة وعلم ومعرفة وتاريخ وجغرافيا وحسرة وتأمل وتعلم، تماما كما تقول الكاتبة عن نفسها نيابة عن قومها، فالآخر نعرفه بالتعرف أيضا على أنفسنا وتظل لعبة المرايا هذه مهمة لكل من أراد مصارحة نفسه ومعرفة الخبيء من زواياها.

وتبقى ميزة الكتاب الأساسية انه يعالج قصة قوم احتار مجتمعهم الأصلي فيهم فلم يصل لا في الماضي ولا في الحاضر الى رأي نهائي حول انتمائهم، وهؤلاء هم من عرفوا في الغرب بالمرتدين، وفي التسمية هذه تهمة ليس مفروضا على القارئ تبنيها، فهم مرتدون بالنسبة للكنيسة وقد يكونون مهديون، وهم شبيهون باليهود والموريسكوس الذين اعتنقوا المسيحية مع فارق وحيد ومهم جدا وهو أن المرتدين دخلوا الاسلام طواعية في أغلب الأحيان بينما اليهود والموريسكوس أجبروا على اعتناق المسيحية ومع هذا عاملهم مجتمعهم الغربي بالشك الدائم والمستمر الذي أفضى في نهاية الأمر الى اجلائهم قسرا عن بلادهم في عملية تطهير عرقي ـ ديني لم يمارسها الشرق أبدا حتى في أحلك أيامه.

(الطائفة المحمدانية)

ان وجود (أماكن الحدود) و(أشخاص الحدود) اللذين شكلا ما يشبه (مساحة محايدة) في الوساطة بين عالمي البحر المتوسط المتناقضين في الفترة ما بين 1550 و1650 قد تزامن ـ تقول الكاتبة ـ مع مرحلة تغير عميق في العلاقات بين الثقافة الأوروبية الغربية و(الآخر) المسلم الذي مثلته الامبراطورية العثمانية. وتلاحظ الكاتبة أن الأوروبيين ومع احتفاظهم بالخوف من العالم (التركي) الاسلامي الا أنهم بدأوا يعتبرونه أقل خطرا وأكثر ألفة خاصة مع نهاية القرن الخامس عشر عندما تراجع الاعتقاد السائد بأن الاسلام ليس الا تأويلاً محرفاً للمسيحية ليحل بدلا منه اهتمام به بعينه. وهذا الاهتمام بدوره كان مصاحبا لتغيرات مهمة، منها اكتشاف العالم الجديد واكتشاف ثقافات وديانات بعيدة كل البعد عن ديانات أهل الكتاب ما جعل صورة المسلم في عيون الغربيين أكثر قربا لهم. وهكذا ومع الاستمرار في اتهامهم بالالحاد والفجور لم يعد أتباع (الطائفة المحمدانية)هم الوحوش وأخذ مكانهم في المخيل الجمعي الأوروبي مواطنو العالم الجديد كما تعتقد الكاتبة. وباحتكاك الثقافة الأوروبية بديانات وثقافات العالم الجديد صحيح أنه توسع أمامها فضاء (الضلال) ولكنها بقيت محافظة على أساسيات رفضها للآخر، وتدلل الكاتبة على ذلك أن غزاة العالم الجديد من الاسبان أطلقوا تسمية مسجد على أماكن عبادة أهالي العالم الجديد الوثنيين كما أطلقوا تسمية (القاهرة الكبرى) على أحد المدن الأصلية المهمة، كما قام الاسبان بتصدير احدى الرقصات التي ما زالوا يمارسونها في بلادهم في احتفالات بعض مدنهم وهي الرقصة التي يكون احد طرفيها خاسرا ويمثلهم في الأصل (لوس موروس) أي المسلمين الذين حل مكانهم هنود العالم الجديد بينما الرابح في الحالتين يمثله الطرف الغربي المسيحي.

وقد لعبت الثقافة البروتستانية في رأي الكاتبة دورا مهما في دفع عملية البحث عن التشابهات مع الاسلام، اذ أنها لم تخف منذ البدء تعاطفها مع دين مثل الاسلام يلتزم بقوة بفكرة التوحيد ورجال الدين فيه لا يمثلون طبقة على غرار الكنيسة الكاثوليكية ويمنع التجسيد والصور، وبالطبع ـ تؤكد الكاتبة ـ بقيت اختلافات أساسية في الممارسة العملية وفي التنظير الفكري الايديولوجي خاصة في موضوع هو عقدة الاختلاف بين التيارات الفكرية المسيحية نفسها الا وهو (التبرير بالعمل)، فالمسلمون كما هو معروف يؤسسون شخصيتهم الدينية على سلسلة من الممارسات اليومية وبالتالي على أعمال يؤدونها اطاعة لأحكام القرآن وبهذا ـ تقول الكاتبة ـ يصطدمون وجها لوجه مع الطوائف البروتستانتية التي عن طريق (التبرير بالايمان) كانوا يذهبون حد الشطط في عملية الابطان الحاضرة في التقاليد المسيحية. وعلى كل حال بقيت ـ في رأيي ـ علاقة كل التيارات المسيحية مع الاسلام ذات رأسين: اذ عادة ما كان كل تيار يتهم الاخر بالشبه والتعاون مع الدين الاسلامي وفي الوقت نفسه ضرب المثل في تعاون المسلمين وجديتهم الدينية واعتدالهم. وقد فتح اكتشاف العالم الجديد ـ تقول الكاتبة ـ آفاقا جديدة لأوروبا ظهرت آثارها في طريقة رؤية أوروبا لنفسها خاصة بعد اكتشاف مطواعية واستعداد الشعوب الأمريكية للدخول في المسيحية وهذا ما أعطاها قوة وحماسا خاصة للكاثوليك منهم والذين كانوا الأوائل في بدء الاستعمار عن طريق الوجود الاسباني، وبهذا ـ تلاحظ الكاتبة ـ تكون قد انتهت فترة العصور الوسطى التي عرفت حرب مواقع مهلكة مع المسلمين وصداما لم ينته ابدا مع اليهود وكلاهما عصيان على الدخول في المسيحية، وبدأت مرحلة جديدة من الأمل بنشر المسيحية في كل العالم. واذا كانت ولادة الاسلام وانتشاره قد شكلا صدمة للعالم المسيحي ـ كما تقول الكاتبة ـ وكبحا من نجاحه فان اكتشاف العالم الجديد جاء ليجدد الطموحات التوسعية للمسيحية وبالتالي اضعاف التوجهات الانفتاحية تجاه الاسلام من جهة وإثراء تجربة الدعوة للمسيحية ونقلها للبلاد الاسلامية من جهة أخرى، فقد استفادت مثلا البعثات التي أنشأها (فيسيمت دي بول) من التجديدات الناتجة عن التجربة الأمريكية، ومع أن جهودهم كانت فاشلة ـ كما تلاحظ الكاتبة ـ الا أن حلم تنصير المسلمين لم يمت ويدل على ذلك برأي الكاتبة نشوء وتطور أدب خاص يعنى بتربية وتدريب المبشرين المنتدبين للعمل في أرض الاسلام، وقد اتخذ هذا الأدب قالب الحوار بين ممثلي ديانات مختلفة وهو أدب كان له نجاح واسع في العصور الوسطى كما تذكر الكاتبة ونشر في عام 1683 الفرنسي (الأب ناو) الذي عاش طويلا في سورية حوارا مماثلا أراد به دحض فكرة عدمية واستحالة الحوار مع (الأتراك) بشأن الدين، وكان (ميشيل ناو) هذا واثقا من نفسه لدرجة اعتبار عمله التبشيري بين المسلمين ليس (رميا للدرر على الخنازير) بل (تحويل الذئاب الى خراف) كما يقول حرفيا، وقد استفاد (ناو) من انفتاح الاسلام على المسيحية كما تقول الكاتبة ليقنع مستمعيه من المسلمين بأن محمدنفسه (ص) يعترف بتفوق دين عيسى عليه السلام. ويبدو أن (ناو) ـ تلاحظ الكاتبة ـ كان يعلم جيدا انه وبالرغم من أن الديانتين ـ الاسلام والمسيحية ـ ولدتا من كتب إلهية مسطورة الا أن السلوك المسيحي تجاه كتابهم المقدس مختلف جدا عن سلوك المسلمين، حيث لم يأخذ المسيحيون ـ كما تقول الكاتبة ـ كتابهم بحرفيته بل فسروه واعادوا تفسيره بهدف استنباط المعاني المخبأة فيه، بينما المسلمون يقبلون المعنى الظاهر والمباشر لكتابهم.

وتلاحظ الكاتبة كيف تصدى اليسوعي (ميشيل ناو) في كتيباته التثقيفية لما تعتبرها الكاتبة المواضيع أو النقاط الخلافية بين الديانتين والثقافتين وهي نفس المواضيع التي اعتبرها (ماكس ويبر) نقاط خلاف بين الثقافتين أي: الموقف من الكتب المقدسة، الاختلاف في فهم مبدأ التوحيد، معادلة الدنس ـ الخطيئة وحرية الاختيار، وهي فروق تمس اسس البناء الثقافي كما تلاحظ مثل العلاقة مع الجسم وبالتالي الجنس وكذلك المساحة المتروكة لحرية الاختيار الشخصي فيما يخص السلوك الديني، أم فكرة التوحيد فبما أن اله المسلمين بعيد وغامض ـ تقول الكاتبة ـ فان أحكامه أبدية وغير قابلة للتغير، ولهذا على المسلم أن يتبعها حرفيا بينما العبادات في المسيحية مصدرها الكنيسة التي تغيرها لتتناسب مع الظروف. وفي المحصلة تلاحظ الكاتبة أن الثقافة المسيحية دون الاسلام هي التي طورت من قدرتها على فهم ودراسة (الآخر) فالثقافة الاسلامية كما تقول لم تظهر أي اهتمام أو حب استطلاع تجاه أعدائها الأساسيين وخاصة المسيحيين منهم حتى القرن التاسع عشر على الأقل. ولأن معرفة الذات تمر بمعرفة الآخر فان الكاتبة تتخيل ان تجربة (المرتدين) احتلت موقعا متقدما في عملية التعرف الأوروبي على الذات مع كل ما ينقص هذه التجربة من مصادر بسبب الصمت الأوروبي عن هذه (الفضيحة) كما تقول.

الدم أو الدنس
(الطبخ لغة يترجم بواسطتها كل مجتمع بلا وعي مبادئه) ليفي شتراوس
الباطن/الظاهر

اعتمادا على أرشيفات محاكم التفتيش تورد الكاتبة أمثلة تظهر من خلالها السهولة التي اندمج بها (المرتدون) فيما تسميه الكاتبة الطقوس الاسلامية أي عزوف المرتدين عن أكل لحم الخنزير ـ علانية على الأقل ـ وشرب الخمر ـ وهو محرم عادة ما التف عليه المسلمون أنفسهم ـ كما تقول الكاتبة وكذلك ممارستهم للاغتسال وأكلهم اللحم أيام الجمعة وقبولهم بالختان، وتستشهد الكاتبة بروايات (المرتدين) عن طرق الختان وانهم كانوا يربطون أو يمسك بهم أربعة رجال أثناء الختان لمنع وقوع اذى بهم، وقد استخدم بعض المرتدين هذه الظروف للقول فيما بعد أمام محاكم التفتيش أن ختانهم كان اجباريا كما تقول الكاتبة. وكان المرشحون للدخول في الاسلام يخافون الختان لأسباب كثيرة كما تقول الكاتبة أهمها الخوف من حمل علامة جسدية دائمة قد تكون دليل اثبات ضدهم في حال رجوعهم الى المسيحية ـ وهو احتمال لم يستبعد ابدا ـ كما تقول الكاتبة، اضافة الى الخوف من الألم الجسدي الناتج عن الختان أو حتى الخوف من الاخصاء أو أن يكون ضحية لممارسات لواطية تعود عليها واتهم بها كما تقول القراصنة (البربر)و تحدثت عنها كثيرا الثقافة الشعبية لشعوب المتوسط.. فالخوف من الختان كان هو الخوف الأوحد والكابح الوحيد لمن أراد الدخول في الاسلام من الغربيين وقد فعل كثير منهم ذلك وبسهولة تلفت انتباه الكاتبة باستمرار وتقارنها بصعوبة ان لم يكن استحالة ارتداد المسلم حتى في ظروف عصيبة، وعند هذا الحد كان لا بد من التطرق الى تجربة (الموريسكوس) أي المسلمين الاسبان الذين تولى في نهاية القرن السادس عشر أمر الاشراف على صدقية اعتناقهم الجمعي للمسيحية قبل هذا التاريخ بخمسين عاما ما سمي حينئذ بالمكتب المقدس. فمن تقارير محاكم التفتيش هذه يظهر للكاتبة أن أهم الصعوبات في عملية اندماج المسلمين الموريسكوس حدثت بالتحديد في مواضيع الأكل وطرق الاعتناء بالجسد. فموريسكيو غرناطة تقول الكاتبة ختنوا أبناءهم وصاموا رمضان ولم يأكلوا خنزيرا ولا شربوا الخمر وبشكل عام تمسكوا بعاداتهم الغذائية حتى بعد تنصيرهم. وكان هذا سببا لكثير من الاتهامات والمحاكمات ضدهم، ولكن هذه العادات الغذائية تقول الكاتبة كانت الوسيلة التي سمحت للموريسكوس بالتواصل مع ماضيهم وتاريخ شعبهم وبناء جاليتهم وتمييزها عن جيرانهم المسيحيين الذين كثيرا ما كانوا يقيمون دعاوى ضدهم بسبب هذه الممارسات اليومية. واضافة الى الغذاء كان الجسد وطرق نظافته وأوقاتها أحد التهم التي دائما ما وجهها الجيران النصارى للموريسكوس.

جدير بالذكر أن فن وتراث الأيقونات الغربي والمسيحي عامة حافل بما لا يحصى من الأيقونات التي تمثل المسيح عليه السلام لحظة الختان، وهناك محاريب في بعض الكنائس تسمى محاريب الختان مما يدعو المرء الى الاعتقاد أن ختان الأطفال ليس غريبا عن المسيحية.

ثقافة الخنزير

وتستخلص الكاتبة أن هناك عددا من القوالب والأحكام المسبقة التي طبقتها الثقافة الغربية على الآخر المختلف الداخلي (أي اليهود) أولا وعلى المسلمين لاحقا وعلى بعض الجماعات العرقية المسيحية الكاثوليكية أيضا وهي قوالب تبدأ بالأكل مرورا بالجسد وصولا الى الروائح وغيرها، فمهاجمة جسد الآخر ورميه بكل العيوب هو جزء من الثقافة الغربية التي كثيرا ما تسميها الكاتبة مسيحية. وقد مرت هذه الثقافة بتغيرات عدة أوصلتها الى ما هي عليه الآن، وأول خطوة على طريق هذا التبدل جاءت في رأي الكاتبة بالابتعاد عما كان يمارسه اليهود فيما يخص الجسم ونظافته مثلا وهو ابتعاد حصل في السنين الأولى من انتشار المسيحية وسببه الحاجة الى التميز والتجديد كما ترى الكاتبة وهو ما سيفتح عملية تطور معقدة للشخصية الأوروبية (المسيحية). وبعد أن تذكر الكاتبة بعضا من محتوى رسائل القديس بطرس عن الأكل تصل الى نتيجة مفادها أن المسيحي الفرد لا يجد أبدا صعوبة تذكر في أكل ما تقدمه الثقافات الأخرى وهذا برأيها أحد أسباب توسع وانتشار الثقافة المسيحية. على العكس من ذلك وجد اليهود والمسلمون صعوبة في استيطان بلاد النصارى بسبب صعوبة تأمين الغذاء على طريقتهم كما تقول الكاتبة، فاليهود مثلا كان عليهم التواجد بأعداد معينة لتأمين احتياجاتهم من الغذاء (النقي) وكان مهما أن يستطيعوا بيع ما لا يصلح لهم للنصارى. ويعود انحسار وجود المسلمين في أوروبا (سابقا) الى عدم وجود ما يحتاجه هؤلاء من خدمات من مساجد وحمامات عامة وغذاء محضر على طريقتهم والكاتبة تستشهد بآراء بؤنارد لويس في هذا الشأن. ولكن الغرب ومع وضوح مبادئه النظرية في هذا المجال الا أنه تصرف في هذه الحالة أيضا بتناقض كما تشير الكاتبة. فاذا كان الغرب قد تخلص ولو نظريا من فكرة النجس فانه يطبقها عمليا باتهام الآخر المختلف بها وللدلالة على ذلك ستفحص الكاتبة كل المحرمات الاسلامية وموقف الثقافة الغربية من هذه المحرمات وهو موقف تخبرنا الكاتبة مقدما انه لم يكن متناغما مع نفسه.

الخنزير: ترى الكاتبة أن تحريم أكل لحم الخنزير في الثقافة الاسلامية جاء كنتيجة للعلاقات الوطيدة التي أقامها الرسول (ص) مع اليهود في المدينة في السنين الأولى من بعثته وان هذا التحريم قد غدا سريعا واحدة من علامات التمايز بين الداخلين في الاسلام والعرب الوثنيين وعلامة للتقارب مع اليهود الموحدين وقد جاءت لاحقا الآيات المدنية الذاكرة لاسماعيل وابراهيم (عليهما السلام) لتؤكد استقلال الدين الجديد عن اليهودية حسب رأيها.

أما المسيحيون ـ تقول الكاتبة ـ فقد أكدوا على تمايزهم عن اليهودية بالقفز فوق المحرمات الغذائية ومنها لحم الخنزير، واذا كان اليهود والمسلمون يعتبرون المسيحيين نجسين لأنهم يأكلون الخنزير فانه ـ تتابع الكاتبة ـ من الشائع بين المسيحيين الاعتقاد أن اولئك لا يأكلونه لأنهم هم أنفسهم (خنازير) أي فاسقين. وبعكس اليهود والمسلمين فان الخنزير في الثقافة المسيحية ـ تقول الكاتبة ـ يحتل موقعا مهما جدا لما للحمه من أهمية في دورة الغذاء دون نسيان ما يرافق ذبحه وتحضير لحمه من مراسيم وعادات وطقوس تجعل من ذبحه الأكثر طقوسية.

بل ـ تتابع ـ يمكن القول أن هناك ثقافة حقيقية خاصة به هي (ثقافة الخنزير) بتقويماتها واقتصادها ولفتاتها وممثليها ومسرحيتها، وأن هذه الطقوسية الزائدة قد تكون في جزء منها ردا على الثقافات المجاورة ، ولكن الكاتبة تورد آراء (فابري فاساس) دارسة المجتمعات البشرية التي ترى أن الضيق والحرج اللذين يصاحبان ذبح الخنزير وأكله مصدرهما التشابه العضوي بين جسم الخنزير وجسم الانسان، واذا أضفنا الى هذا التشابه ـ تتابع الكاتبة ـ عادة الفلاحين الأوروبيين في تربية الخنزير في البيت واحاطته بكل عناية كأنه طفل من أطفال العائلة يظهر جليا ان مسألة (أكل لحوم البشر ـ الكنيباليزم) هي في صلب عادات تربية وأكل الخنزير لدى المسيحيين الذين بنوا سلسلة من التلاعبات الرمزية بهدف تجنب الخلط التام بين الطفل والخنزير. وتتابع الكاتبة نقلا عن مصادرها أنه وبسبب ما يمكن تسميته عادة أكل لحوم البشر المهجورة وبسبب القلق الداخلي من أكل الخنزير يعمد الغربيون (المسيحيون) الى اتهام اليهود بأكل طفل مسيحي بدل الخنزير في عيد الفصح.

ولكن هناك أيضا تناقضا ـ كما تلاحظ مجددا الكاتبة ـ في الثقافة الغربية (المسيحية) فمن جهة إلهة الخصب والقمح (ديميتريا) كانت على هيئة خنزير وقد تكون عبدت في الأصل على أنها كذلك وفي المقابل يمثل الخنزير النجس والوسخ والمحرم، وقد حلت الثقافة الغربية هذا التناقض عن طريق التفريق بين الخنزير الأسود المشيطن والخنزير الوردي المثمن عاليا. هذا التناقض الغربي يظهر ايضا ـ تتابع الكاتبة ـ في تصدير السالب الى الآخر المختلف الذي يرفض أكل الخنزير والذي تتم معارضته ليس فقط بطقوس التقديس التي ترافق ذبح الخنزير وانما بشخصية القديس (أنطونيو) الذي يقدمه فن صناعة الأيقونات مع خنزير دائما.

وتعتقد الكاتبة أن الخنزير المرافق لـ (أنطونيو) في الأيقونة جاء مكان الخنزير البري الذي كان في الأصل والذي يمثل للغرب حيوانات الصحراء البرية، وهذا التبدل في الأيقونة جاء مصاحبا لنقل رفات القديس من القسطنطينية الى ايطاليا في القرن الحادي عشر.

وقد استخدم شحم الخنزير للطبخ في الغرب المسيحي عوضا عن الزبدة أو زيت الزيتون وهذا الأخير كانت الكنيسة قد فرضت استخدامه ـ كما تنوه الكاتبة ـ خلال صوم الأربعين في محاولة لتوحيد عادات التغذية بين مناطق الشمال والجنوب الأوروبي ولكن المحاولة لم تنجح لأسباب عدة وقضى عليها الانقسام الداخلي في الكنيسة في القرن الخامس عشر، وبقيت المواجهة قائمة حتى تاريخ حدوث الانقسام بين شحم الخنزير وزيت الزيتون وهي المواجهة التي انعكست على التغذية في الكرنفال والأعياد والأيام التي تسبقه. وتذكر الكاتبة كيف أن البروتستانت تمردوا على أوامر كنيسة روما ورفضوا زيت الزيتون كبديل لشحم الخنزير بينما أوروبا المتوسطية بقيت في منتصف الطريق بين تحليل وتحريم جزئي للشحم والزيت.

خمر ولحم ودم

بعد أن تستعرض الكاتبة خصوصية الاسلام في تحريم الخمر وكل المشروبات المذهبة للعقل باستثناء الاستخدامات الطبية تنوه الى عدم التزام المسلمين بهذا التحريم في كثير من الحالات وتدلل على ذلك بتقارير الرحالة الغربيين ومشاهداتهم خاصة في المدن الاسلامية وخاصة اسطنبول، كما تنوه الى الصعوبة التي كان يلاقيها المرتدون في الامتناع عن تناول الخمور مع أن واحدا منهم هو داي تونس (الأسطى مراد الجنوي) أظهر حزما واضحا في منعه. وتلاحظ الكاتبة كيف انقسمت آراء الغربيين حول هذه القضية: فمن ناحية كانت سببا للاعجاب عبر عنه كثير من الرحالة بينما أدانه رجال الدين الغربيون طارحين حرية شرب الخمر للمسيحي باعتباره حكيما وقادرا على شرب ما يناسبه من الخمر دون الوصول الى السكر، ولكن هذه التفسيرات لم تقنع المسلمين كما تقول الكاتبة وتستشهد بما قاله سفير ايران لدى الفاتيكان من أن المسلمين يحترمون عيسى عليه السلام أكثر من الدعاة الكاثوليك أنفسهم وان الانجيل يشكك في أخلاقية عيسى ويقدمه على أنه شارب للخمر بل مبارك له. ولكن الكاتبة تعتقد أن هذه المواجهة بين ثقافة تحرم الخمر وتستبدله بالقهوة واخرى تبيحه وتدين استخدامه المفرط تخفي فرقا رمزيا أكثر عمقا، فالنبيذ في الثقافة المسيحية هو اكثر من شراب مسكر حيث العلاقة واضحة بين النبيذ والدم كمادتين حيويتين ومقدستين كما تقول. فدم المسيح يمحو الخطايا بدل الماء عند اليهود والمسلمين والمسيح ذاته كما تدعي أسس في العشاء الأخير للطقوس التي ستربط دمه ذا الخصائص الاعجازية مع النبيذ، وجاءت ثقافة العصور الوسطى الأوروبية لتثبت التماثل الوظيفي بين النبيذ والدم، وهكذا تستنتج الكاتبة أن المسيحي يعارض تعليمات الاسلام مرتين عندما يشرب الخمر الطقوسي باعتباره شاربا للخمر ولدم الرب في آن، وهكذا ينتقل الخمر في الرمز من شراب مسكر الى رمز للروحيةممثلا للدم المطهر، وتضيف الكاتبة أن الدم في المجتمع الغربي مثل الركيزة لنظام الطبقات الاجتماعية وساهم في استمراره حيث كان الاعتقاد سائدا في العصور الوسطى أن دم الملوك كان مختلفا وأكثر نقاء وصفاء معطيا بذلك حقا طبيعيا لحكم الأرستقراطية وهذا بالطبع ـ تضيف الكاتبة ـ مخالف للنظرية الاسلامية ممثلة هنا بالامبراطورية العثمانية حيث الحكم لم يكن وراثيا وثروات الحاكمين كانت تؤول في النهاية لبيت مال السلطان، وهكذا يتقابل نظامان رمزيان: الثقافة الغربية التي تصر الكاتبة على تسميتها مسيحية التي لا تحرم الخمر ولا تناول الدم بل ترفع هذين السائلين الى درجة رمزية عالية تجعل منهما منبعا للطهارة، بينما الثقافة الاسلامية تحرم الخمر وكذا تناول الدم الذي لا دخل له في ترسيم طبقات المجتمع حيث الكل رعية للسلطان.

الاغتسال بالماء والجنس

بالنسبة للمرتدين فقد عنى دخولهم للاسلام تعلم الوضوء وممارسته من بين امور أخرى عديدة، والوضوء كان غير معروف في أوروبا كما تقول الكاتبة، وقد كان من بين المواضيع التي تطرقت اليها تحقيقات محاكم التفتيش المقامة ضد من رجع من (المرتدين). وتلاحظ الكاتبة أن المحققين عادة ما لخصوا سلوك (المرتدين) في جملة واحدة متكررة وهي: (وعشت في مأكلك ومشربك وفي الظاهر كما الأتراك.. وصمت وتوضأت). ولكن الكاتبة تلاحظ أن علاقة المتهمين بالغسل والتطهر لم تكن بهذه البساطة وأنها لم تكن علاقة ظاهرية دائما وتورد على ذلك أمثلة تظهر أن ممارستهم للوضوء والطهارة كانت من أجل محو الخطايا والسيئات تماما كما يفهم ذلك المسلمون.

وبالرجوع الى آراء وكتب الرحالة والمستكشفين الأوربيين يظهر للكاتبة اندهاش وثنائية الأحكام التي أطلقها هؤلاء عن الغسل والوضوء وتذكر بهذا الخصوص ما كتبه عالم النباتات المبعوث من طرف لويس الرابع عشرالفرنسي (تورنيفورت) الذي رأى في اهتمام المسلمين بالنظافة اليومية لأجسادهم شيئا ايجابيا وقد شاركه هذا الرأي كثيرون دون أن يتوقفوا عند الأهمية الدينية لطقوس النظافة هذه، ولكنهم ـ تلاحظ الكاتبة ـ وانطلاقا من المفاهيم الطبية السائدة آنذاك في أوروبا اشاروا الى خطورة الاستخدام المكثف للماء في نظافة الجسم وتسببه في التهابات المخ، ومع هذا يظل الاستحسان هو السائد في آراء عالم النبات الفرنسي عن الحمامات ونظامها ونظافتها وهدوئها، وينسحب هذا الاستحسان على وجود المراحيض العامة في المدن وهو ما لم تكن تعرفه أوروبا حينها. وتذكر الكاتبة أن القلة من المسلمين الزائرين لأوروبا حينها كثيرا ما اشتكوا من وساخة الأوروبيين ومدنهم وأن هذه الشكوى استمرت حتى القرن التاسع عشر على ما يذكره بيرنارد لويس في كتابه (أوروبا البربرية).

والكاتبة ترى أن هذا الرأي القاسي من نظافة الأوروبيين أو من وساختهم بالأحرى لم يكن غير ذي اساس، فالحمام كمكان عام لم يكن معروفا في أوروبا خصوصا من القرن السادس عشر الى نهاية القرن الماضي كما تقول، ونظافة الجسد عندهم كانت تقتصر على دعكه جافا بخرقة نظيفة واستخدام بعض العطر والمواد الدنسة بل ذلك المصقول بالزهد والصوم عن الجنس والمتوج بالعذرية، وهكذا ـ تقول الكاتبة ـ كان لا بد أن يرى المسيحي في الوضوء الاسلامي مناسبة خطيرة تحمل في طياتها تدنيسا لأخلاقياته. وتعترف الكاتبة أن الماء ولو بعد مباركته يدخل في تقاليد مسيحية مهمة مثل التعميد الذي يهدف بالأساس الى محو الخطيئة الأولى وكذلك في أيام الابتهال لمباركة الحقول، وتعتقد الكاتبة أن وجود مثل هذه التقاليد في المجتمعات المسيحية قد يفسر الارتباك الذي وقع فيه الكثير من المرتدين بقبولهم الوضوء.

شخصية تهوي الى الداخل

بالرغم من نقاط الاتصال العديدة بين الثقافتين الا أنهما حافظتا على اختلافات جوهرية خاصة فيما يتعلق بالجسد ـ كما تستنتج الكاتبة ـ وتضيف ان (الجسد الشرعي) عند المسلمين هو ذاك الذي ينصاع في حياته اليومية لتعاليم القرآن بغض النظر ـ كما تدعي ـ عن الشهوات والهواجس والنيات بينما (الجسد الشرعي) عند المسيحيين غير مبال بالطقوس الخارجية ويحافظ على طهارته بالحراسة الداخلية والفردية. وتعتبر الكاتبة أن عدم المبالاة بالطقوس كان السبب في تسهيل انخراط المرتدين في المجتمع الاسلامي وهو نفسه الذي أمّن انتشار المسيحية في مناطق عديدة ذات ثقافات محلية دون دفع هذه الثقافات ـ في البداية على الأقل ـ الى نمط ثقافي منتظم في حياتها اليومية. وترى الكاتبة أن هناك علاقة بين انتشار المسيحية وعدم التزام هذه الديانة بالمحرمات الغذائية و تشاطر (سولير) الرأي أن هذه العلاقة أساسية في الثقافة المسيحية متخذين من رؤية بطرس الواردة في أعمال الرسل دليلا على ذلك. والرؤية هذه فيها تحليل لبعض ما كان يحرم بطرس على نفسه من جهة ومن الجهة الأخرى دخول الوثنيين الى المسيحية. ولكن غياب ما تسميه الكاتبة طقوسا خارجية أدى الى ضعف في الشخصية المسيحية وتناقضات في تصرفها الجمعي، فمن جهة تستقطب الثقافة الاسلامية بطقوسها الخارجية القوية كثيرا من أتباع المسيحية الأوروبيين وفي المقابل يجد الأوروبيون من اهل المناطق الحدودية مع المسلمين أنفسهم مدفوعين الى ضرورة تمييز أنفسهم عن المسلمين بأكلهم ما يعتبره هؤلاء محرما. وقد كان مأكل اليهود وذبحهم من المواضيع التي أثارت زوابع في بعض مدن ايطاليا في العصور الوسطى، فمثلا حاولت مدينة (تودي) فرض توحيد للعادات المتبعة في الذبح بهدف وضع حد «للحالة الناجمة عن رفض اليهود أكل لحم الحيوانات المذبوحة على طريقة المسيحيين بينما المسيحيون يأكلون دون مانع ما يذبح على طريقة اليهود أيضا» كما تورد الكاتبة نقلا عمن كان لسنين طويلة رئيسا للجالية اليهودية في ايطاليا وحدثت في عهده زيارة البابا الشهيرة لمعبد روما في الثمانينيات (طواف). وتجزم الكاتبة بأن ما حصل في اسبانيا في القرن الخامس عشر يظل مثلا صارخا لما تسميه العودة الى عتبات محسوسة للهوية. فاسبانيا حينذاك كانت المملكة المسيحية الوحيدة التي تعاملت مباشرة وعلى نطاق واسع مع مشكلة التعايش مع مسلمين ويهود كما تقول الكاتبة التي لا تنسى التأكيد على أن اختراع وممارسة مفهوم (نقاء الدم) الذي يتعارض مع المبادئ المسيحية قد أدخل درجة مادية للتفريق بين البشر في لحظة تاريخية كانت تشهد تباشير عملية دمج محتملة. وفي محاولة لفهم ما يمكن تسميته بالجريمة التاريخية ضد مسلمي اسبانيا القرن الخامس عشر تعتقد الكاتبة أن افتقار المجتمع الغربي المسيحي لمنظومة مادية محسوسة من الانتماء منعت هذا المجتمع من ضبط علاقته بالآخر المختلف عنه وجعلت هذه العلاقة خطرة وحولت أي احتكاك الى مواجهة، والكاتبة تصل الى هكذا نتيجة منطلقة من أن مهمة المحرمات في أي مجتمع هي تنظيم المواجهات والتوترات الاجتماعية، وعندما محت المجتمعات الغربية فكرة الحلال والحرام وبالتالي تجاوزت مفهوم المحرم تهاوت معه حدود الانتماء وصاحب ذلك ميل الى اتهام الآخر المختلف مسلما كان أم يهوديا بكل سلبيات الغرب نفسه، وهكذا فكل رذيلة أو عيب أو ممارسة غير مقبولة في الغرب يصبح مصدرها الآخر كما تقول الكاتبة، فمثلا اذا حدثت حالات لواط في أوروبا يقال ان (رذائل البربر قد عبرت البحر) واذا انتشر وباء ما فينسب ذلك دائما الى سفن قادمة من الشرق حينما لا ينسب ذلك الى اليهود مباشرة كما تقول الكاتبة.

لوحة للموريسكوس

المؤلفة:

لوشيته سكارافيا، من مواليد تورينو عام 1948، تدرس التاريخ المعاصر في جامعة روما الحكومية (لاسابينتسا) مؤلفة لعدة كتب منها: (قديسة اللاممكنات، قصة ومعاني التعلق بالقديسة ريتا) ومن كتبها التي تتعرض لمواضيع حديثة (النساء والإيمان) و(القدسية والحياة الدينية) و(خيوط الذاكرة: نساء ورجال في التاريخ).

عنوان الكتاب الاصلي بالايطالية:

Lucetta Scaraffia
Rinnegati: Per una storia dell'identità occidentale
Editori Laterza

* كاتب فلسطيني يقيم في اسبانيا